اسم الدرس : تفسير سورة يوسف (7) | الآيات (43-54)

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ محمد صلى الله عليه وسلم. نستكمل بإذن الله عزّ وجل وقفات مع سورة يوسف:

أسأل الله عزّ وجل أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، وأسأل الله عزّ وجل أن يفتح علينا وعليكم في فهم كتاب الله وفي العمل به وفي المجاهدة به.

كنا قد توقفنا عند قول الله عزّ وجل: {فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ * وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ..} [يوسف:43,42].

• لا تعجل

وقد سبق أن ذكرنا أن سورة يوسف تتميز بالتنقلات من مشهد إلى آخر أثناء ذكر القصص القرآني، حتى أنها قد تكون أحيانًا بصورة مفاجئة؛ تجعل الإنسان متيقظًا أثناء قراءتها بسبب حدوث هذه الانتقالات؛ فأثناء قراءتك لآية: {فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ} [يوسف:42] ومع هذا المد في كلمة "سنين"، وهذا التوقف في ختام الآية؛ تستحضر تلك السنوات الطويلة التي قضاها يوسف عليه السلام في ذلك السجن.

وكنا قد تساءلنا في المرة الماضية: ترى ماذا كان يحدث في حال قلب يوسف؟ بم كان يفكر؟ كيف كان حال تسبيحه وطاعته لله سبحانه وتعالى؟ كيف بلغ المرتبة التي قال فيها لرسول الملك كما سنرى بإذن الله سبحانه وتعالى: "ارجع إلى ربك"[يوسف:50]؟

هذه المرتبة وهذه النقلة التي حدثت في حياة يوسف عليه السلام استمرت لسنوات؛ **فمن المهم جدًا أن يتعلم الإنسان أنّ تحصيل المقامات الإيمانية يحتاج إلى زمن، وأن هذا الزمن قد يطول.**

-كثير منّا يسمع عن مقام من مقامات: التوكل، الإخبات، الإنابة، البذل، الشجاعة، ويتمنى الشهادة، لكنّه لا يعلم كيف يحصل على هذه المقامات، أو ما الثمن الذي لا بد أن يدفعه من أجلها.

أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى في القرآن عن قول ذلك الرجل: {أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ} [البقرة:259]؛ ليقول له بعد مائة عام -

بعد أن بعثه– عزّ وجل في ختام الآيات: {اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ} هذه قراءة، أو كما في رواية حفص: {أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة:259] فاستغرق تعلم هذا المعنى مئة عام من عمره!

فالله سبحانه وتعالى لا يعجل بعجلة أحد.

القضية أن الإنسان –للأسف– فُطر على العجل: {خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ}[الأنبياء:37]؛ وكأنّ التعجل ملازمٌ للإنسان، كأنّه في أصل خلقته, ولكن رؤية الآيات والبينات لا تحتاج إلى عجلة: {سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}[الأنبياء:37]، فالذي يريد أن يرى آيات في معاملة الله سبحانه وتعالى له؛ لا بد ألّا يعجل.

كما قال صلى الله عليه وسلم: (يُستَجابُ لأحَدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ، يقولُ :دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)[1].

ولما جاء خباب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو له الأذى في مكة، شرح له النبي صلى الله عليه وسلم بعد مقدمةٍ طويلة أنّ هذه سنّة الله سبحانه وتعالى في السابقين، ثم قال له في ختام الحديث: (ولكنّكم تستعجلون)[2].

وهذا إشكال؛ أن ترى إيذاء المستضعفين، أو سجن العلماء والدعاة؛ فتقول: "كيف يحدث هذا؟!" ولا تعلم أنّه قد يكون لله سبحانه وتعالى حكمة في هذا الأمر، وأن الله سبحانه وتعالى يربي أولياءه.

فالقضية أنّ الله لا يعجل بعجلة أحد..

فهنا مشهد يوسف عليه السلام في السجن لسنوات {فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}[يوسف:42]، والله سبحانه وتعالى يُمهل ولا يهمل، بل يقدّر أمورًا، وفي اللحظة التي قدّرها سبحانه وتعالى: {وَقَالَ ٱلْمَلِكُ}[يوسف:43], في هذه اللحظة لطف من ربّنا سبحانه وتعالى؛ كيف أنه سيخرج يوسف من

[1] يُسْتَجابُ لأحَدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ، يقولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي.
الراوي : أبو هريرة /المحدث : البخاري/المصدر : صحيح البخاري/الصفحة أو الرقم: 6340 /خلاصة حكم المحدث : [صحيح]/التخريج : أخرجه البخاري (6340)، ومسلم (2735)

[2] -شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.
الراوي : خباب بن الأرت /المحدث : البخاري /المصدر : صحيح البخاري/الصفحة أو الرقم: 6943/خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

السجن بطريقة لا تتوقعها... فقد دخل عليه السلام إلى السجن بعدما بدت الآيات للعزيز {لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ}[يوسف:35]، وامرأة العزيز كانت هي من تسببت في ذلك؛ فأنت تتوقع مثلًا أنّ امرأة العزيز تأتي لتزوره في السجن، وتتوسط له ويخرج، أو تعطي مبلغًا من المال لمن يقوم بتهريبه...إلى آخره من التوقعات.

كما في قصة موسى عليه السلام وهو طفل رضيع، بعد أن التقطه آل فرعون، قال ربّنا سبحانه وتعالى لأم موسى: {إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ} [القصص: ٧].

فتتساءل -قبل تتمة القصة، وكأنّك تقرأها لأول مرة-: كيف سيرجع موسى -وهو طفل رضيع- إلى أمه وقد أخذه فرعون في قصره؟ وكيف لن يقتله؟ كيف ألقى الله سبحانه وتعالى محبة موسى في قلب امرأة فرعون؟ وكيف قالت امرأة فرعون: {لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا}[القصص:9]؟ وكيف وافق فرعون على هذا واتخذه ولدًا؟ وكيف حرّم ربنا سبحانه وتعالى عليه المراضع؟

كل هذه أقدار قد لا يتخيلها الإنسان، فالإنسان يكون فكره أحيانًا محصورًا في سبب أو سببين لحل مشكلته؛ معتقدًا أنّ حل المشكلة يأتيه إما بهذا السبب أو بالسبب الآخر، فإذا انتهت هذه الأسباب ييأس ويُصاب بالإحباط، ولا يعلم أنّه {مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ} [لقمان:27]، وأن الله قادر على كل شيء بأمور لا تتخيلها أنت!

وأنت تقرأ: {فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ * وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ...} [يوسف:43,42]

هنا قدّر الله سبحانه وتعالى أن تكون رؤيا يراها الملك هي البداية لخروج يوسف عليه السلام من السجن.

- **لطف الله وتدبيره**

ذكرنا مرارًا أنك لا بد أن تستحضر أنّ سورة يوسف هي مجموعة من المشاهد والحلقات المترابطة، عندما تُفقد حلقة واحدة من هذه الحلقات لا يتم خروج يوسف عليه السلام من السجن إلى الملِك؛ تقديرًا ولطفًا وتدبيرًا من الله سبحانه وتعالى.

تخيل لو كان دخل يوسف إلى سجن انفرادي، أو لو أن السجينين اللذين رأيا الرؤى لم يدخلا معه، أو لو أنهما دخلا معه ولم يريا الرؤى، أو رأيا الرؤى ولم يقصاها عليه، أو قصاها عليه ولم يعرف تأويلها، أو لو أنّه أوّلها وتأخر تأويلها –تحققها– إلى أن قضى يوسف عليه السلام نَحبه في السجن، وأمور كثيرة جدًا...

فكيف أنّ الله سبحانه وتعالى قدّر أن يرى الملك –بنفسه– تلك الرؤيا؟ فلو أنّ أحدًا من الرعية كان هو الذي رأى الرؤيا، كان من الممكن ألّا يهتم الملك لها.

فيرى الرؤيا، وتكون مفزعة، ويجمع لها الناس، ولا يستطيعوا أن يؤولوها, وكان من الممكن أن يؤولوها؛ فيقولون له –مثلًا– أن هذه السبع بقرات هم سبع أولاد ستنجبهم، أو أن السبع بقرات السمان هم سبع أعداء ستتسلط عليهم وتميتهم...الخ.

الشاهد أنه كان يمكنهم أن يألفوا شيئًا ما ويضللوه؛ فيرضى بهذا التأويل، لكنهم لم يتكلموا، بل قالوا: {وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ} [يوسف:44].

وأن يُقدر ربنا أنّ من يسمع الملك وهو يسأل عن الرؤيا هو الساقي الذي خرج؛ فقد كان من الممكن ألّا يسمع عن الرؤيا! لكنه يسمع عن الرؤيا، ويعلم اهتمام الملك بها، ويتذكر كل هذه الأحداث بتدبيرٍ من الله سبحانه وتعالى؛ لينتقل يوسف عليه السلام بلطفٍ من الله من السجن إلى الملِك.

{وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ} [يوسف:43]: هنا جاءت بصيغة التأكيد، فلم يقل "رأيت" كما كان متوقعًا –كونها حدثت في الماضي– بل جاءت بالتأكيد، وبالمضارع {إني أرى}؛ وكأنّه يرى الآن، وكأنّه مستحضرًا الرؤيا فلا تفارقه! لذلك، إبراهيم عليه السلام استعمل أيضًا صيغة المضارع، قال: {يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ} [الصافات:102]

لدرجة أنّ بعض المفسرين تعجب، وذكر أن مجيء "أرى" بالفعل المضارع؛ يُشعِر كأنّه رأى الرؤيا أكثر من مرة؛ بل هناك من استعان ببعض الإسرائيليات وقال أنّ إبراهيم عليه السلام رأى رؤيا الذبح ثلاث مرات! وهذا الكلام قد يتعارض مع أنّ سيدنا إبراهيم كان يسارع لتنفيذ أمر ربه.

فنريد دائمًا يا إخوة أن نلاحظ أنّ القرآن يستعمل أسلوبًا غير الذي كان من المتوقع استعماله؛ وهذه من مفاتيح التقاط اللطائف القرآنية أن تعرف الأصل في الاستعمال.

ما الذي كان متوقعًا أن يقال هنا؟ كان من المتوقع أن يقول: "رأيت"، لكن إتيانه بالتأكيد، وبصيغة المضارع له دلالة.

حتى أنهم قالوا أن هناك حذف لكلمة "في المنام" في سورة يوسف؛ فسيدنا إبراهيم عليه السلام قال: {إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ}[الصافات:102]، لكن هنا حُذفت "في المنام"؛ وكأنّ هذا الحلم لا يفارقه، وكأنّ الصورة مستحضرة معه، فكان هذا الأمر يهمه, وهذا أيضًا من تقدير الله عز وجل، أن يجعل هذه الرؤيا تصيبه بالهم لكي يسأل عنها، فقد كان من الممكن ألا يلتفت إليها، ولا يشغل باله بها؛ لكن هذا من تقدير الله.

{إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ}[يوسف:43]:

بعضهم قال: كان هناك نهر، خرج منه سبع بقرات سمان، ثم خرج بعدهن سبع بقرات عجاف -أي هزيلة وفيها نوع من النحافة-، فخرجت والتهمت السبع السمان.

حتى أن بعض المفسرين بعد ما ذكر مسألة النهر من الإسرائيليات، حاول أن يؤول كذلك ما هو النهر.

{يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ}[يوسف:43]:

و"سبعَ" هنا منصوبة؛ أي: ورأيت أيضًا.

أي أني أرى سبع بقرات، وأرى سبع سنبلات خضر وأخرى يابسات. فعطفهم على بعض؛ لأن رؤية سبع سنبلات خضر وبجانبهم أخرى يابسات هو مشهد عجيب!

وقال بعض المفسرين –اعتمادًا أيضًا على بعض الروايات الإسرائيلية-: أنّ السنابل اليابسة التفت على الخضراء والتهمتها، فكما أن البقرات الهزيلة أكلت البقرات السمان، كذلك السنابل اليابسات التهمت السنابل الخضر.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ}[يوسف:43]: هنا نداء على كل من يهمه الأمر، أو لأصحاب الشأن والمكانة في أعين الناس –وقد تكلمنا عن الملأ بالتفصيل في سورة الأعراف-.

وقيل: جَمَعَ كل من لديه أدنى علم بتعبير الرؤيا، أي أنه جمع من يفقه ومن لا يفقه في تعبير الرؤى؛ لاهتمامه بهذا الأمر.

- **تأويل الرؤي**

{أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ}[يوسف:43]:

معنى "**تعبير الرؤيا**":

بعضهم قال: أشبه بعبور الشاطئ، أي الانتقال من مكان إلى مكان, وعابر الرؤيا: ينقل الرؤيا من النوم إلى الحقيقة فحين تقول أن شخصًا يعبر الرؤيا؛ أي ينتقل بها من الرموز إلى الواقع، ومن المجاز إلى الحقيقة.

يقول لهم {إن كنتم للرؤيا تعبرون}، وهنا أشار بعض العلماء أن الشك: {إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ}[يوسف:43]؛ وكأنّ الملك كان متوقعًا أنّه لن يجد عندهم بغيته؛ إما لأنهم فشلوا من قبل في تأويل الرؤيا، أو لأن هذه الرؤيا كانت مهمة بالنسبة إليه وكان يشك أنهم يستطيعون تأويلها، لذلك فور علمه بوجود من يستطيع تأويل الرؤيا أرسل إليه مباشرة!

مسألة تعبير الرؤيا:

يمكن إيجاد الأبحاث الفقهية الخاصة بالرؤيا –وغير ذلك- إما في قراءة التفاسير التي تهتم بالأحكام الفقهية مثل: القرطبي، أو بقراءة باب تعبير الرؤى في البخاري، وقراءة شرحه، أو في أي كتاب جامع.

وإن كانت الرؤيا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم تزداد في آخر الزمان، وتتحقق مثل فلق الصبح.[3]

أي أنه كلما ابتعد الناس عن نور النبوة يحتاجون إلى مبشرات؛ فتزداد الرؤى في آخر الزمان حتى تكون رؤيا أحدهم كفلق الصبح, فسألهم عن الرؤيا، وقال: {إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ * قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ}[يوسف:44,43]

لأن الرؤيا ثلاثة: حلم من الشيطان، ورؤيا من الله سبحانه وتعالى، وحديث نفس.

فمن المهم لمن يرى رؤيا ما، أن يسأل شخصًا ذو خبرة، أو هو بنفسه يكتسب خبرة بعد فترة من الزمن. لكن لا يُحدّث بكل ما يراه؛ لأنه قد يرى نعمة عظيمة فيُحدّث بها من يحسده، أو يرى أمورًا من لعب الشيطان به، كما حدث مع الرجل الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال أنه رأى رأسه مقطوعة، تجري أمامه وهو يجري وراءها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يحدث أحَدُكم بتلعب الشَّيطانِ به في منامه)[4]

فهل من الممكن أن يقول أحدهم أنه رأى نفسه وهو يطير، ثم يتوقع أن يجد تأويلًا لهذه الرؤيا؟!

الرؤيا يكون لها طابع معين يعرفه من منّ الله عزّ وجل عليه بالرؤى، أو سمع رؤى، أو لديه خبرة في ذلك.

وتأويل الرؤيا علم؛ أي أنه يكون مبنيًا على بعض القواعد التي يصعب حصرها، ويصعب الجزم بها؛ فلا يمكن الجزم بأن تأويلها هو كذلك مئة بالمئة، فهو أولًا وآخرًا سيكون ظنًا.

---

[3] إذا اقْتَرَبَ الزَّمانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيا المُؤْمِنِ، ورُؤْيا المُؤْمِنِ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ، وما كانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فإنَّه لا يَكْذِبُ. قالَ مُحَمَّدٌ: وأنا أقُولُ هذِه. قالَ: وكانَ يُقالُ: الرُّؤْيا ثَلاثٌ: حَديثُ النَّفْسِ، وتَخْوِيفُ الشَّيْطانِ، وبُشْرَى مِنَ اللَّهِ، فَمَن رَأَى شيئًا يَكْرَهُهُ فلا يَقُصَّهُ علَى أحَدٍ ولْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ. قالَ: وكانَ يُكْرَهُ الغُلُّ في النَّوْمِ، وكانَ يُعْجِبُهُمُ القَيْدُ، ويُقالُ: القَيْدُ ثَباتٌ في الدِّينِ.
الراوي : أبو هريرة /المحدث : البخاري /المصدر : صحيح البخاري/الصفحة أو الرقم: 7017/خلاصة حكم المحدث : [صحيح]/التخريج : أخرجه البخاري (7017)، ومسلم (2263)

[4] - جاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، رَأَيْتُ في المَنَامِ كَأنَّ رَأْسِي ضُرِبَ فَتَدَحْرَجَ فَاشْتَدَدْتُ علَى أَثَرِهِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لِلأَعْرَابِيِّ: لا تُحَدِّثِ النَّاسَ بتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بكَ في مَنَامِكَ وَقالَ: سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بَعْدُ، يَخْطُبُ فَقالَ: لا يُحَدِّثَنَّ أَحَدُكُمْ بتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ به في مَنَامِهِ.
الراوي : جابر بن عبدالله / المحدث : مسلم / المصدر : صحيح مسلم/الصفحة أو الرقم: 2268 /خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

لما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقص عليه رؤياه، كان الصدّيق رضي الله عنه بجواره، فطلب أن يؤول هو الرؤيا، فبعدما أوّلها قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (أصبت وأخطأت)[5]، أي أن الصدّيق -وهو يؤول الرؤيا- أصاب في شيء وأخطأ في آخر. فبالتالي، أي شخص يؤول بعد الصدّيق رضي الله عنه قد يصيب في شيء، وقد يخطئ في شيء آخر.

{قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ}[يوسف:44]:

"**أضغاث**": أشبه بمجموعة من حزمة النباتات الملتفة، أي الشيء الذي لا يصلح للاهتمام، أو الخليط الذي لا يُفهَم ما هو.

اختلف العلماء في معنى قولهم {وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ}[يوسف:44]: فهل المقصود أنهم يقولون أنهم خبراء في تأويل الرؤيا، "ولكن هذه أحلام؛ والأحلام لا تُفسر، فلا إجابة عندنا لطلبك"؟

أم أنهم يعترفون بعجزهم، ويقولون: "هذه رؤيا صعبة ولا نستطيع تفسيرها"؟

جماهير المفسرين على القول الأول، أنهم يدّعون في أنفسهم الثقة، وأن هذه أحلام وهم لا يفسرون الأحلام, بعض المفسرين -أظن أنه مروي عن مقاتل بن سليمان- قال أنهم يعترفون هنا بعجزهم، ولا يدّعون الثقة. فالخلاف: هل هم واثقين من رأيهم، أم أنهم ينقلون عجزهم وضعفهم للملك؛ لكي يبحث عن بديل.

{وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ}[يوسف:44]:

[5] أنَّ رَجُلًا أتَى رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: إنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ في المَنَامِ ظُلَّةً تَنْطُفُ السَّمْنَ والعَسَلَ، فأرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ منها، فَالْمُسْتَكْثِرُ والمُسْتَقِلُّ، وإذَا سَبَبٌ واصِلٌ مِنَ الأرْضِ إلى السَّمَاءِ، فأرَاكَ أخَذْتَ به فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا به، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا به، ثُمَّ أخَذَ به رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وُصِلَ. فَقالَ أبو بَكْرٍ: يا رَسولَ اللَّهِ، بأَبِي أنْتَ، واللَّهِ لَتَدَعَنِّي فأعْبُرَهَا، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اعْبُرْهَا. قالَ: أمَّا الظُّلَّةُ فَالإِسْلَامُ، وأَمَّا الذي يَنْطُفُ مِنَ العَسَلِ والسَّمْنِ فَالقُرْآنُ؛ حَلَاوَتُهُ تَنْطُفُ، فَالْمُسْتَكْثِرُ مِنَ القُرْآنِ والمُسْتَقِلُّ، وأَمَّا السَّبَبُ الوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرْضِ فَالحَقُّ الذي أنْتَ عليه، تَأْخُذُ به فيُعْلِيكَ اللَّهُ، ثُمَّ يَأْخُذُ به رَجُلٌ مِن بَعْدِكَ فَيَعْلُو به، ثُمَّ يَأْخُذُ به رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو به، ثُمَّ يَأْخُذُهُ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ به، ثُمَّ يُوَصَّلُ له فَيَعْلُو به، فأخْبِرْنِي يا رَسولَ اللَّهِ -بأَبِي أنْتَ- أصَبْتُ أمْ أخْطَأْتُ؟ قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أصَبْتَ بَعْضًا وأَخْطَأْتَ بَعْضًا. قالَ: فَوَاللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ، لَتُحَدِّثَنِّي بالَّذِي أخْطَأْتُ، قالَ: لا تُقْسِمْ.
الراوي : عبدالله بن عباس / المحدث : البخاري/المصدر : صحيح البخاري/الصفحة أو الرقم: 7046 /خلاصة حكم المحدث : [صحيح]/التخريج : أخرجه البخاري (7046) باختلاف يسير، مسلم (2269)

ذكرنا سابقًا أن هناك مشاهدًا محذوفة من القصة، كما في أي قصص قرآني، لا يذكر التفاصيل، لكنه يترك الخيال ويترك الذهن يُكمل القصة؛ فينتقل من مشهد إلى مشهد، ويدعك تُكمل بنفسك هذه الاحداث المعروفة. -أنه انتقل إلى ذلك، وفعل كذا وكذا...الخ-.

- **يوسف أيها الصديق**

{وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ () يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا } [يوسف:45,46]:

{وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا}[يوسف:45]: هنا، لم يقل الله سبحانه وتعالى "الساقي".

وقد ذكرنا أن الروايات الإسرائيلية تقول أن الذين سُجنا هما: الخباز المسئول عن الطعام، والمسئول عن الشراب ثم قُتل المسئول عن الطعام، ونجا الساقي.

وهذا أيضًا من أساليب القصة القرآنية، أن يربط الأحداث ببعضها البعض. فأنت تكون مستحضرًا للمشهد الذي يحصل في السجن، والرؤيا وتأويلها، وأن حضور هذا الرجل لكلام الملك يعني أنه كان ملازمًا له -أي من الواضح أنه كان مقرّبًا للملك، وهو الساقي-، وأن الملك بعدما سجنه فترة أرجعه مرة أخرى لنفس منصبه ووثق به مجددًا؛ لأن هذا الرجل سمع الملك وهو يقول: "يا أيها الملأ" أثناء جلوسه معهم، وسُمِح بوجوده في ذلك المجلس، بل وسُمِح له أن يدلي برأيه أيضًا.

{وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}[يوسف:45]:

{وَٱدَّكَرَ}: أي وتذكر.

أصل الكلمة: واذتكر -أي ذكر وافتعل-؛ فادُغمت الذال في التاء وقُلبت دال.

{بَعْدَ أُمَّةٍ}: أي بعد فترة زمنية طويلة.

هذا ما عليه القراءات المتواترة كلها، ويوجد قراءة شاذة -مروية عن الحسن وعن ابن عباس أيضًا-: "بعد أمَهٍ"؛ أي بعد نسيان.

وكثير من المفسرين يستشهد بالقراءات الشاذة كتفسير وليس كقراءة؛ فلا يجوز القراءة بها، لكنها تصلح كتفسير -أي تساعدنا في التفسير-، وهي أشبه برأي الصحابة.

ما فائدة هذه القراءة؟

أنها تدل على آية: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف:42].

من الذي نسي؟ على من تعود هذه الهاء؟

إما أن يكون يوسف عليه السلام ويكون ربه هو الله سبحانه وتعالى، أو يكون الساقي ويكون ربه هو الملك.

فمن اختار أنه الساقي في تلك الآية؛ قال هنا في "ادّكر": أنه تذكر بعد هذا النسيان الذي أخبرنا الله عنه في الآية السابقة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾[يوسف:45]:

بعض العلماء قال: لم يكن يُفضَل أن يقول: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾: لأن التأويل ليس عنده، بل سيسأل عنه، فهنا كأنه ينسب الفضل إلى نفسه. ولكنّه قال بعد ذلك: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾..

لماذا قال ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾؟

هل كان مربوطًا؟ -فالإرسال فيه شيء أشبه بالقيد-

قال العلماء: إما لأنه أراد الاستئذان للذهاب بعيدًا؛ لأن السجن كان يُقام خارج المدينة.

وإقامة السجون في مكان بعيد خارج المدينة مروي عن بعض السلف، لدرجة أن ابن عطية -وقد كان في عام خمسمائة وأربعين هجريًا تقريبًا- كتب في تفسيره أن الناس في زمنه كانوا يشيرون على مكان سجن يوسف عليه السلام على ضفاف نهر النيل؛ فهذه الأماكن لم يكن فيها مباني كثيرة في تلك الأيام.

الشاهد أنه يقول ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾: أي اسمح لي أن أذهب بعيدًا إلى السجن، أو ائذن لي أن أدخل إلى السجن.

وبعضهم أشار إلى معنى آخر: أي كأنّه خاف أن يدخل ولا يخرج؛ فقال له: أنا سأذهب فقط لكي اسأل، لا لكي أدخل السجن دون أن أخرج مرة أخرى.

وصل إلى يوسف عليه السلام، وقال: {يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ}[يوسف:46]؛ لأنه جرّب صدقه، قال له أنه سينجو، ونجى بالفعل، وقال له أنه سيعصر خمر الملك، وفعل.

وقيل: {ٱلصِّدِّيقُ} إما بالخبر العظيم، أو بتكرار الأخبار.

قال بعضهم: لأنه كان معه في السجن، وكان يرى رؤى كثيرة فيطرحها على يوسف، فيؤولها له. -كما قال له: {لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ} [يوسف:37] وشرحنا الخلاف هناك-

فتكرار هذا الأمر جعله يلمس بنفسه صدق يوسف في أكثر من موطن.

وقيل أن الصدق ليس فقط في تأويل الرؤيا، بل كان صادقًا في المواقف أيضًا، رغم أنه قد يحتاج في السجن إلى الكذب، ولكنّه حتى في السجن لم يكذب أبدًا. **وهذا من أخلاق المؤمن: أن يحافظ على الصدق مهما تبدلت به الظروف -إلا حينما يحتاج إلى الفرار من العدو، أو لمصلحة معينة-**.

{يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ}: لأنه لمس ذلك بنفسه.

{أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ}[يوسف:46]:

العجيب أن يوسف عليه السلام قال له سابقًا: {ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ}[يوسف:42]: أي قُل للملك.

والملك هنا غير العزيز، وهذا ما عليه جمهور المفسرين؛ أنّ الملك هو رئيس البلاد، وأنّ العزيز هو أشبه بمنصب رئيس الشرطة أو وزير الداخلية أو رئيس الوزراء.

فقال له: {ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ}؛ لأن مشكلة يوسف كانت مع العزيز، فلن يستطيع حلها إلا من هو أعلى منه!

لذلك، طلب يوسف عليه السلام من الساقي أن يذهب إلى الملك، ويطرح قضيته عليه.

بعضهم قال أن سيدنا يوسف عليه السلام لم يطلب الوساطة -الشفاعة-، أي لم يقل له اذهب وقل له أنني أتوسط -أشفع- لشخص في السجن، بل قال له أن يطلب من الملك أن ينظر في القضية فقط -أن يُفتح له قضية-؛ لأنه كان مسجونًا دون قضية "حتى حين".

كما ذُكِر في آياتٍ سابقة: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ} ما تكملتها؟ {حَتَّىٰ حِينٖ}[يوسف:35].

وهذا الحين لا ينتهي! فقال له: اذكرني عند ربك فقط، ليس لكي يُخرجه، بل لينظر في القضية.

{فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ}: أيًا كان الذي نسي، الشاهد أنه: {فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ}[يوسف:42].

ثم تذكر، ولما رجع ليوسف طلب تأويل الرؤيا، دون أن يذكر حتى أنه سيكلم الملك في أمره! فيا لوقاحته! ألم يطلب منه منذ سنين أن يكلم الملك؟

لو كان أحدنا في موقف سيدنا يوسف سيقول: "كيف تفعل هذا؟! ألم أخبرك منذ سنين بتأويل الرؤيا التي تحققت بالفعل؟ ألا تكافئني -على الأقل- مقابلًا لذلك التأويل؟! "

ثم يأتي بعد سنين، ويكون أول ما يطلبه:

-{يوسُفُ أَيُّهَا الصِّدّيقُ}[يوسف:46].

=نعم؟

-أفتنا في كذا وكذا.

فيخبره سيدنا يوسف عليه السلام بتأويل الرؤيا.

ثم يذهب! فقد جاء لكي يسأله عن الرؤيا فقط ويعود مسرعًا!

فقال: {أَفتِنا في سَبعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجافٌ وَسَبعِ سُنبُلاتٍ خُضرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلّي أَرجِعُ إِلَى النّاسِ لَعَلَّهُم يَعلَمونَ}[يوسف:46].

حتى أن بعض المفسرين قال أنه أثناء كل الكلام لم يلتفت إلى يوسف، بل قال: {لَعَلّي أَرجِعُ إِلى النّاسِ}؛ حتى يستفيد الناس.

وإن كان بعض المفسرين قالوا –حتى لا يكون كل الكلام ذم في الرجل-: أنه قال له {لَعَلّي أَرجِعُ إِلى النّاسِ}؛ لعلهم يعلمون صدقك، فيخرجوك من السجن.

فأنت ما بين أن تسيء وتحسن الظن بالساقي..

وأنت تقرأ أحيانًا القولين، ولا تعلم ما الفرق بينهما. فتجد أن بعض العلماء يقولون في {لَعَلَّهُم يَعلَمونَ}: أي لعل الناس يستفيدون في دنياهم من تأويل رؤياك، أو {لَعَلَّهُم يَعلَمونَ}: أي لعلهم يعلمون صدقك؛ فيحتاجون إليك.

فهل هناك فارق؟

الفارق: أن هذه كانت أخلاقه مع سيدنا يوسف عليه السلام.

فلو قلنا أن {يعلمون} بمعنى يستفيدون في دنياهم: فقد جاء إلى يوسف عليه السلام وطلب طلبه، ويوسف عليه السلام لم يشترط وأجابه مباشرةً، ولم يذكّره ولم يعاتبه؛ وهذا من كمال أخلاق يوسف عليه السلام.

أما لو كان معناها {يعلمون} صدقك: فهو جاء لكي يقول له: لقد وجدت أخيرًا الفرصة التي ستخرجك! -أي أنا جئت لأجلك-؛ فلو أوّلت الرؤيا، وكان تأويلك صحيحًا ستخرج.

وهذا من إعجاز القرآن، أن هناك محذوفات تكون سببًا لتنوع التفسير، وهناك أسباب كثيرة يذكرها العلماء لتنوع التفسير، منها: المحذوف، والتقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار، والتضمين، وغيرها كثير...

فالمحذوف هنا: المفعول. أي: لعلهم يعلمون ماذا؟

{لَعَلّي أَرجِعُ إِلى النّاسِ}[يوسف:46]:

بعضهم قال في {لَعَلّي أَرجِعُ}: أي أنه خائف ألا يعود.

{قالَ تَزرَعونَ}[يوسف:47]:

بدأ مباشرةً في تأويل الرؤيا، ولم ينشغل بأي شيء آخر, لم يحدث نفسه بأمور مثل: هل سأعبر له الرؤيا؟ وماذا سيقولون له بعد تأويلها؟ ...إلخ. وهذا يدل على أن يوسف عليه السلام في الفترة التي قضاها في السجن لم يعد في قلبه إلا الله، ولم يعد ينشغل إلا به.

فلم يقم فقط بفك الرموز، بل قام بالتأويل -أي بتأويل الرموز-، ثم بالنصيحة، ثم بالبشرى، وهذه ثلاثة مستويات لا يفعلها إلا نبي؛ لأن البشرى فيها اطّلاع على الغيب.

أو قال بعضهم -كما سأذكر الآن في قوله تعالى {ثُمَّ يَأتي مِن بَعدِ ذلِكَ عامٌ}[يوسف:49]-: أنه سأل عن سبعة وسبعة، ففسر يوسف عليه السلام السبعة والسبعة، ثم أعطاه النصائح في كيفية الاستفادة، ولم يكتفِ فقط بتفسير الرؤيا.

وهذا أمر مهم حينما يسألك أحد عن رؤيا لديك تأويلها، أن تحاول أن تدمج الحل مع التأويل، الأمر الثالث البشرى، وهذا ما فعله سيدنا يوسف في كمال الإجابة، ولم يشترط شيئًا عليه السلام.

- **الحل مع التأويل**

{قالَ تَزرَعونَ سَبعَ سِنينَ دَأَبًا فَما حَصَدتُم فَذَروهُ في سُنبُلِهِ إِلّا قَليلًا مِمّا تَأكُلونَ}[يوسف:47]:

هذه السبع بقرات السمان، يقول لهم أن الوسيلة للحصول على سبع بقرات سمان -أي الحصول أيضًا على سبع سنبلات خضر- هي عن طريق الاجتهاد سبع سنوات في الزراعة؛ ليكون عندكم محصول زائد.

{قالَ تَزرَعونَ سَبعَ سِنينَ} أي هي السبع بقرات.

{دَأَبًا}: وتُقرأ {دَأْبًا}.

قال الإمام الطبري -وغيره-: {دأَبًا} بمعنى كعادتكم.

أي أنكم لن تجتهدوا، بل ستزرعون كعادتكم في الزراعة. فستكون السبع سنين القادمة ستكون طبيعية جدًا مثل السنين الماضية، وعليكم أن تستمروا في الزراعة كعادتكم.

لكن ما سيستجدّ عليكم أنكم ستدخرون ما تحصدونه في هذه السبع سنين {فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦ}[يوسف:47].

وقال بعضهم: "دأَبًا" بمعنى الاجتهاد، والدؤوب بمعنى الاجتهاد. أي أنكم تحتاجون في السبع سنين القادمة أن تزيدوا من مجهود الزراعة أكثر.

{قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ}: أي بعدما تجمعوا زرع السبع سنين {فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦ}[يوسف:47]، وقالوا أن بقاءها في سنبلها –فلا تُفتح– أحفظ للبذرة؛ فتعيش لمدة أطول.

قال بعضهم: كان الممكن ألا تعيش الحبوب غير سنة أو سنتين.

فردّ ابن عطية –وغيره–: أنك تأكل من الأقدم فالأقدم, فتدخر –مثلًا– السنتين الأولى، ثم تدخر السنة الثالثة وتأكل من السنة الأولى، ثم تدخر السنة الخامسة وتأكل من السنة الثانية، فيتبقى معك في النهاية ما يكفيك لخمسة سنين –مثلًا–.

{فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ}[يوسف:47]:

يخبرهم عن شيئين يجب فعلهما في السبع السنين القادمة:

من قال "دأَبًا" بمعنى الاجتهاد:

أي، سنجتهد في الزراعة، ونقلل الأكل –سنأكل على قدر القوت فقط–، ثم نترك الباقي في سنبله.

{ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ}[يوسف:48]: التأويل أيضًا مدموج بالنصيحة.

هذه هي السبع التي دعا النبي صلى الله عليه وسلم على قريش بها فقال: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ)[6]، وبالفعل أصبحوا في مجاعة، لدرجة أن أحدهم كان يرى الدخان بينه وبين السماء – وهذا أحد تأويلات آية {فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ} [الدخان: ١٠]: أنه ليس بدخان يوم

---

[6] أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ إذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَهُ، في الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِن صَلَاةِ العِشَاءِ؛ قَنَتَ: اللَّهُمَّ أنْجِ عَيَّاشَ بنَ أبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أنْجِ الوَلِيدَ بنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أنْجِ سَلَمَةَ بنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ علَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ.
الراوي : أبو هريرة / المحدث : البخاري/المصدر : صحيح البخاري/الصفحة أو الرقم: 6393/خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

القيامة، بل دخان العذاب-. ثم شكوا حالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فدعا الله سبحانه وتعالى؛ فصرف عنهم ما هم فيه ولم تكتمل السبع سنوات.

الشاهد: أنها كانت سنوات شداد بالفعل، لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يدعو على قريش بسنين اختار هذه السنوات السبع!

وهذا يدلك أيضًا على معايشة النبي صلى الله عليه وسلم لقصة يوسف عليه السلام؛ فحينما دعا على قريش دعا بهذه السنوات السبع، ولما فتح مكة تذكر ما قاله يوسف[7] -كما سنذكر بإذن الله تعالى في ختام السورة- {يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ}[يوسف:92]. فانظر إلى استحضار النبي صلى الله عليه وسلم لقصة يوسف عليه السلام!

{ ثُمَّ يَأتِي مِن بَعدِ ذلِكَ سَبعٌ شِدادٌ يَأكُلنَ ما قَدَّمتُم لَهُنَّ إِلّا قَليلًا مِمّا تُحصِنونَ }[يوسف:48]:

{تُحصِنونَ}: أي تضعون في الحصن.

وسينتهي كل ما ادخرتم، ويبقى جزء قليل جدًا.

{ثُمَّ يَأتي مِن بَعدِ ذلِكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ النّاسُ وَفيهِ يَعصِرونَ}[يوسف:49]:

هنا اختلف العلماء في كيفية معرفة يوسف عليه السلام لهذا العام:

***الطبري روى عن قتادة**: أن هذا مما علّمه الله سبحانه وتعالى إياه من علم الغيب، أي أن الله سبحانه وتعالى أعلم يوسف أن بعد الأربعة عشر سنة -السبعة التي سيشتغلون فيها في الزراعة، والسبع الشداد- سيأتي عام تنتهي فيه المجاعة؛ فأضاف البشرى إلى الرؤيا بتعليم الله له.

***وقال بعض أهل العلم**: أن العدد -بتعبير الأصوليين- له دلالة؛ فدلالة العدد سبعة أنها ستنتهي.

فرؤيته لسبع بقرات سمان، ثم لسبع شداد؛ تعني أن مع انتهاء "العدد السبعة" ستنتهي السبع الشداد.

وهذا من حكمة يوسف وفهمه.

---

[7] -لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكم وهوَ أرْحَمُ الرحمينَ وأنشدَهُ أبو سفيانَ أبياتًا جاء فيها : لعمرُكَ إِنِّي حينَ أَحْمِلُ رايةً لِتَغْلِبَ خيلُ اللاتِ خيلَ محمَّدٍ لكالْمُدْلِجِ الحيرانَ أظلَمَ ليلُهُ فهذا أوانِي حينَ أُهْدَى فأهْتَدِي هداني هادٍ غيرُ نفْسِي ودَلَّنِي على اللهِ مَنْ طَرَدتُّهُ كلَّ مَطْرَدِ فضربَ الرسولُ علَى صدْرِهِ وهُوَ يقولُ لَهُ : أنتَ طَرَدتَّنِي كُلَّ مَطْرَدِ.
الراوي : عبدالله بن عباس/المحدث : الألباني /المصدر : فقه السيرة/الصفحة أو الرقم: 376/ خلاصة حكم المحدث : حسن

الخلاصة، أن بعض العلماء اختار أن هذا من تعليم الله له، والبعض الآخر قال أن هذا من حكمة وفهم يوسف للرؤيا.

{ثُمَّ يَأتِي مِن بَعدِ ذَلِكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ النّاسُ}[يوسف:49]:

قيل: يُمطروا أي ينزل الغيث بمعنى المطر، أو يغاثون نجدةً من الله سبحانه وتعالى.

{وَفيهِ يَعصِرونَ}[يوسف:49]: هو عصر الأشياء -أي كل ما يعصر من الفاكهة والخضروات-، وذلك بمعنى أن عجلة الإنتاج ستتحرك مجددًا.

ونحن نقول دائمًا أن هناك مشاهدًا محذوفة، وأنه ليس هناك استطرادات في القصص القرآني.

{وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ}[يوسف:50]:

أين كان المشهد السابق؟

كان في السجن، حيث يكلم يوسف عليه السلام الساقي ويشرح له.

فانتقل الساقي إلى الملك، وأخبره بالتأويل، فأعجبه، فقال له... إلخ. كل هذا محذوف ومفهوم.

كنت قد قرأت لكم -أظن في أول درس- الفارق بين قصة يوسف في التوراة وقصة يوسف في القرآن، من كتاب "إعجاز العالم الأعلمي في القرآن".

وكذلك قرأت قريبًا للدكتور سامي العامري في كتاب "براهين النبوة" مقارنة بين قصة يوسف في القرآن وقصة يوسف في التوراة من خمسين وجه. قام فيه بمقارنة القصص القرآني مع غيره في خمس قضايا، أنه أفضل، وأكثر تركيزًا على الهدف الرئيسي، وأن ليس فيه خروج عن الأخلاق القرآنية...إلخ.

-إن يسر الله- ألخص لكم في ختام السورة الخمسين نقطة سريعًا؛ التي جمعها في خمس نقاط محورية-.

من يقرأ قصة يوسف في التوراة أو في الإنجيل يتوه، يشعر أنها حكايات، ويجد أن قضية التوحيد والدار الآخرة شبه معدومة فيها!

في حين أنها في القرآن تتضمن التذكير بالله سبحانه وتعالى وبالتوحيد حتى في أحلك المواطن، سواء في مشهد المراودة، أو في مشهد السجن!

- {إنه لا يفلح الظالمون}[يوسف:23] فيذكرهم بتوحيد الله في السجن.

فالقصص القرآني يساق لأهداف وليس لأجل المتعة فقط، -كما تكلمنا في أول درس عن مسألة الروايات والعبث ولهو الحديث-.

{وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ}[يوسف:50]:

انبهر الملك من التأويل، ووقع في صدره أن هذا تأويل عالم للرؤى وليس تأويلًا عاديًا، والملوك تحرص عادةً على ألّا يُسحَب بساط الملك من تحت أقدامهم؛ فهذا شخص لا يعطي تأويلًا فحسب، بل يعطيه حلًا لأزمة اقتصادية ستمر بها البلاد!

وكذلك الملوك لا يريدون الحل فقط، بل يريدون من ينفذه أيضًا.

{وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ}[يوسف:50]: إنه يبدو جيدًا "هاتوه". وهذا من أساليب الملوك، أن يُحْضِروا كل من يقوم بشيء بشكل جيد، ويوسف ليس فقط عنده علم بتأويل الرؤى وإنما قدم العلم مع حل المشكلة الاقتصادية.

{وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ..} [يوسف:50]:

جاء إلى من؟ على من تعود هذه الهاء؟

على يوسف عليه السلام.

من هو الرسول هنا؟

الذي أرسله الملك إلى يوسف.

هل هو الساقي؟ أم أنّ شخصًا آخر ذهب إليه؟

لم يذكر، قد يكون أرسل نفس الساقي، أو أرسل شخصًا آخر.

{فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ}: أي جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام، إلى أين جاء؟

إلى السجن.

=ماذا يقول له؟

-يقول له: الملك يريدك، أبشر.

=ما الذي حدث؟

-الملك يريدك بالاسم، فقد قال لي: اذهب وأحضر يوسف من السجن.

=والقضية؟ والتهمة؟

-تعال فقط، ولا تتكلم في هذا الموضوع.

=أنا متهم بالمراودة، وهذا شرف وعِرض! وأنا أعمل في الدعوة!

-فيقول له: هل ستخرج أم لا؟ -أنا أقول لك أنه يريدك بالاسم!-

={قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ}[يوسف:50]:

هذا الموقف عجيب من يوسف فعلًا!

لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري -وغيره- قال: (لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ ما لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ أتانِي الدَّاعِي لَأَجَبْتُهُ)، أي لو كنت أمضيت كل هذه الفترة، كنت خرجت.

-سنتكلم عن مقصد هذا الحديث،وكيف شرحه العلماء-،

وهناك أثر ذكره الطبري -لا أذكر عمّن، أظنه عن قتادة وغيره-: رفض يوسف الخروج حتى لا يخرج ويُعير، ويقال هذا الذي راود امرأة العزيز، هذا الذي خرج بالواسطة؛ فلا يُقبل منه حين يذهب للدعوة إلى الله، ويقال له كلما ذهب إلى أحد: ألست صاحب تلك القضية... إلخ.

فرفض يوسف عليه السلام، وقال {ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ}[يوسف:50]، شيء عجيب! فهو الذي كان يقول من سنين {ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ}[يوسف:42]، أما الآن فيرفض حتى ولو سيمكث في السجن!

انظر ماذا فعلت السنوات!

لكن قبل أن نكمل دعونا نرجع إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

هناك روايات كثيرة جدًا، لكن أصحها رواية البخاري،

قال العلماء: هل النبي صلى الله عليه وسلم يمدح فعل يوسف، ثم يقول عن نفسه:
(لَو لَبِثْتُ في السِّجْنِ ما لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ أتاني الدَّاعِي لَأَجَبْتُه)؟

هل هو من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من الأحاديث التي لا ينقب فيها؟

والمقصد أن هذا معنى مجازي، وليس أنه صلى الله عليه وسلم لكان أجاب فعلًا، بل يقول ذلك تعجبًا من صبر وحلم يوسف، وأنه قلما يصبر إنسان في هذا الموقف، وأنه من حلم الإنسان أن يفكر في تبعات خروجه من السجن بهذه الطريقة..

وهذا الموقف يسمونه موقف الحلم والأناة، وموقف الصبر..

فهذا معنى، وقال بعض العلماء: لا، بل الموقفان فيهما نوع من المدح. مُكث يوسف فيه مدح، وقول النبي: (لَو لَبِثْتُ في السِّجْنِ طولَ ما لَبِثَ يوسفُ لأجبتُ الدَّاعي) [8] فيه مدح أيضًا.

كيف ذلك؟

قالوا: بحسب حال الإنسان.

فربما يقول له: "ارجع إلى ربك". فيقول الملك: إذًا اتركه في السجن!

فيندم على اختياره لمقام إيماني لا يقدر عليه، بل ربما يقول: لقد تراجعت عن كلامي!

فمقام يوسف، أنه كان على قدر هذا المقدار، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتكلم تشريعًا لأمته؛ وهذا من حكمة الشريعة، أنها تتسع لكل الناس.

فيعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نخرج ثم نبحث عن براءتنا لأننا قد لا نخرج.

---

[8] - نحنُ أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ إذ قالَ ربِّ أرِني كيفَ تُحيي المَوتى قالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ويرحمُ اللَّهُ لوطًا لقد كانَ يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ ولَو لَبِثْتُ في السِّجنِ طولَ ما لَبِثَ يوسفُ لأجبتُ الدَّاعيَ
الراوي : أبو هريرة /المحدث : الألباني / المصدر : صحيح ابن ماجه/الصفحة أو الرقم: 3268 /خلاصة حكم المحدث : صحيح/التخريج : أخرجه البخاري (3372) واللفظ له، ومسلم (151)

فلو طلب الخروج، فهذا ليس مقام نقص، بل هذا شخص أخذ بالحزم؛ لأن هذه الفرصة قد لا تتكرر. -وهذا من باب الأخذ بالأسباب-.

وهذا كلام بعض الشراح -ابن عطية وغيره- ممن تكلموا في الجمع بين القولين -قول يوسف والحديث- .

أما البعض الآخرفقال: هذا الحديث لا ينقب عنه أصلًا، بل هو من باب تواضع النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعجبه من صبر يوسف.

لكن الرؤية الثانية رؤية جيدة أيضًا، أن لا يختار أحد مقامًا لا يقدر عليه؛ حتى لا يندم ولا يمن على الله سبحانه وتعالى ويقول: أنا فعلت كذا، وقلت كذا، فأين النتيجة؟!

وهناك قصة مشهورة عن رجل قال: "فليس لي في سواك حظُ فكيفما شئت فامتحني".

أي أنه يقول لربنا ابتليني كما تشاء، فابتلاه الله بعسر البول، فكان يطوف على أطفال القرية ويقول لهم: ادعوا لعمكم الكذّاب! فقد يختار المرء مقامًا لا يقدر عليه..

وقد فعل يوسف عليه السلام ذلك ثقةً في الله، وهذه أشياء لا تقاس!

- إشكال

- فربما يأتيك سائل يقول: هل أفعل كذا وأتوكل على الله؟ أم ماذا علي أن أفعل؟

فالجواب: أنت حر! هذه اختيارات عليك أن تختارها بنفسك، -هناك اختيارات حياتية أنت الذي ستختارها-،

يقول لك: لكني يمكن أن أختار كذا، وفلان اختار ذلك واستطاع عليه، فهل سأستطيع أنا؟

الجواب: {وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ}[الأعراف:188].

يقول: على أي أساس سأختار؟

الجواب: على أساس يقينك الذي في قلبك.

لذلك، الإجابة على مثل هذه الأسئلة: اختياراتك تكون حسب يقينك.

ومن الخطأ أن تجعل أحدًا غيرك يختار لك بعض الاختيارات الحياتية الصارمة.

هناك أسئلة كثيرة يسألها بعض الناس، مثل: هل أسافر أم أظل هنا؟ هل أذهب إلى الجيش أم أفعل كذا؟ هل أعمل في هذه الوظيفة؟ هل أتزوج تلك المرأة؟...الخ.

والمسؤول ربما يعطيك نصائح عامة في الحياة -يقول لك: غالب من فعل كذا؛ حدث له كذا, فربما يكون الأولى أو الأنفع لك أن تفعل كذا...الخ، لكنك ستتخذ قرارك بنفسك! أنت من يتحمل هذا الأمر.

والغريب، أن تجد من يكثر من الحسابات وينسى الغيب، فيظل يدقق في التفاصيل.

فنقول له: حسنًا، ولكن لا تنسى بعد أن تفعل ذلك أن هناك شيئًا اسمه: "اليقين في ترتيب وتدبير الله".

وهذا إشكال فعلًا؛ أن الإنسان قد يختار لنفسه مقامًا عاليًا، ثم يأتي من يستشيره فيفتيه بنفس المقام، وهو لا يكون على قدر ذلك..

-عذرًا أني تطرقت خارج الموضوع، ولكننا نشاهد هذا الأمر كثيرًا-

فقالوا: إن من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته أنه شرع لهم الاختيار الثاني، وإن من حكمة الشريعة؛ أن يكون لدينا اختيارات مفتوحة، وليس نموذجًا واحدًا مطروحًا.

وهذا موجود في أمور كثيرة في العلاقة بين الدين والدنيا، في اختيارات معينة، في الأخذ بالأسباب، في التوكل...الخ.

وهنا نجد نفس الخلاف الذي حدث عند {ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ}[يوسف:42]:

هل ما قاله صحيح أم لا؟ هل ما قاله من باب الأخذ بالأسباب؟وكثير من المفسرين قال نعم وكان لا بد أن يفعل ذلك، وبعضهم قال لا، من باب التوكل لا يقول ...الخ.

فهي اختلاف مقامات، ولكن المهم أن من يختار شيئًا يتحمل تبعاته..

أخلاق يوسف عليه السلام

{وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ} [يوسف:50]:

والسؤال هنا فيه حكمة من يوسف؛ كأنه يستفسر.

وفي هذا مراعاة لخطاب الملوك وأصحاب المناصب، فلا يكون الخطاب استفزازيًا، بل عليك أن توصل رسالتك بنوع من الحكمة.

لذلك، قال يوسف عليه السلام: "مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ؟" كأنه يستفسر، رغم أنه يعلم.

كأنه يقول له: أطلب منك أن تنظر في القضية.

{مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ} [يوسف:50]:

هنا فعل شيئين:

أولًا: لم يذكر امرأة العزيز مع أنها هي المشكلة. لماذا؟

قال العلماء: هناك احتمالان:

الأول: من حسن الوفاء والعشرة أن يوسف عليه السلام لم يسئ قط إلى العزيز في أهل بيته {إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ} [يوسف:23] –وهذا الذي أرجحه–.

الثاني: أنه لو قال للملك: "ما بال امرأة العزيز"؛ سيقول الملك أنه يتكلم بالسوء عن امرأة رئيس الوزراء، وأنه لا حاجة له بأن يدخل في مشاكل مع العزيز...الخ، فقد يعرض الملك عن حل مشكلته، لكنه لما قال {مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ} [يوسف:50] فهؤلاء النسوة قيل أنهن زوجات رجال يعملون في القصر –أي أنهن من الخدم–؛ فيمكن تحريك القضية حينما يسأل عنهن.

<u>أظن أن القول الأول –والله أعلى وأعلم– أرجح:</u>

أولًا: لأنه مناسب أكثر لأخلاق سيدنا يوسف عليه السلام.

ثانيًا: لأنه اختار علامة باقية –التقطيع-، أما المراودة فليس لها علامة باقية.

{ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٌ}[يوسف:50]:

كلمة "ربي" هنا:

إما بمعنى العزيز:

فهو يقول له أن العزيز يعلم أني مظلوم، وقدَ بَدَت له الآيات، لكنه سجنني رغم علمه بذلك.

أو أنها بمعنى الله:

أي، يكفيني أن الله سبحانه وتعالى يعلم أني مظلوم, وهذا هو الأشهر، والله أعلى وأعلم.

{قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ}[يوسف:51]:

هنا فعل الملك شيئًا عجيبًا جدًا.

ولاحظ معي انتقال المشهد:

أين كان المشهد المذكور في الآية السابقة { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ}[يوسف:50]؟

هل قيل هذا الكلام في السجن؟ أم قيل عند الملك؟

الإجابة: كلاهما. فالجزء الأول من الآية: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ} عند الملك.

والجزء الثاني: "فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ" قيل في السجن، لأن الرسول جاءه هناك.

إذًا الآية تحتوي على مشهدين..

ثم ينتقل المشهد بعد ذلك إلى قصر الملك، حيث ذهب الرسول إلى الملك وأخبره بما حدث، وبما قاله يوسف عليه السلام.

{قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَ ٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦ}[يوسف:51]:

هل قام الملك بتحريات؟ فعرف القصة ودخل بسؤال مباشر على الفور وبهجوم { مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَ ٰوَدتُّنَّ }؟ ولم يقل "ما بال النسوة؟" وهو سؤال يوسف.

أم أن الأمر كان منتشرًا ومعروفًا، والملك كان لديه علم به أصلًا؟

{قال مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسه}:

دخل بهجوم وسؤال مباشر،وقيل: إن امرأة العزيز كانت موجودة معهم وهو يحدثهم –وهذا الراجح–؛ لأنهم أجابوا: {قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ من سوء} [يوسف:51]، وهي أجابت بعدهم؛ فلم يبق سواها.

وقيل: أن الملك سأل النسوة، ثم سألها هي في وقت آخر.

والراجح: أنها كانت موجودة معهم، وأن يوسف عليه السلام ألمح إلماحًا بأنه يريد أن يسأل امرأة العزيز.

{مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ}[يوسف:50]: هو لم يذكر امرأة العزيز بشيء، بل هي لم تكن أصلًا من اللاتي قطعن أيديهن.

فقال الملك: {مَا خَطۡبُكُنَّ}[يوسف:51]: سؤال مباشر!

وقد حاول بعض المفسرين أن يفسروا سبب استعمال الملك للسؤال المباشر:

هل كان لديه خلفية أو علم بالأمر؟ هل حقق؟ هل سأل؟

هل قوله" ما خطبكن" هجوم؟ أم أنه أسلوب استخراج معلومة عن طريق الاتهام المباشر؟

–قبل أن أنسى، أود أن أنصحكم بقراءة كتاب جميل جدًا، اسمه "جمالية النظم القرآني في قصة المراودة في سورة يوسف" لعويض ابن حمود العطوي. كتاب رائع بصراحة؛ يتناول كل هذه الآيات من قوله تعالى: {وَرَ ٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ}[يوسف:23]. وقد استفاض فيه الكاتب، وأتى بأقوال كثيرة، وقام فيه بنوع من التحليل الجيد للقصة القرآنية–.

الشاهد هنا: أن الأسئلة غير متلائمة مع الإجابات.

{مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ}[يوسف:50]:

هو يسألهن هنا عن أنفسهن، لكنهن أجبن عمّن؟

أجبن عن يوسف عليه السلام: {قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ}![يوسف:51]

لم يقلن –مثلًا–: "والله لم نفعل هذا". بل قالوا: "هو لم يفعل، ولم نعهد عليه سوءًا من قبل".

هو يسألكن عن أنفسكن، ما بالكن بيوسف الآن؟!

فتشعر أن هناك شيئًا محذوفًا لإعمال الذهن، أو أن هذا الأسلوب فيه شيء من المداراة –دون استعمال الأسلوب المباشر–.. { قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ }[يوسف:51] فيخاطبهن عن نفسهن، أنتن راودتن يوسف؟

قلن: {مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ}[يوسف:51] هو لم يعمل شيئًا

إذًا، هل تبرئة يوسف فيها إدانة لأنفسهن؟ أم أنهن يتهمن امرأة العزيز بأسلوب غير مباشر؟!

وهذا ما قاله المفسرون هنا: أن النسوة كن يلمحن إلى امرأة العزيز، فلم يبقَ إلا هي؛ فإما أن تعترف، وإما أن تُفضح!

ماذا عليها أن تفعل الآن؟!

- **تبرئة**

{قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}[يوسف:51].

فترتيب وسياق الآيات هنا يصلح في الاستجواب.

اختلف العلماء في معنى"حصحص"على ثلاثة أقوال –على ما أظن–: هل هو من الظهور، أم المباينة، أم من الاستقرار؟

أي، هل من ظهور حصة الباطل من حصة الحق؟ وهذا كلام الطبري –رحمه الله–.

أم من "حص البعير"؛ إذا استقر في مكان؟

أم من الاستئصال، حص شيئًا: أي استأصله، فلم يبق إلا الشيء الظاهر الواضح.

فهي بمعنى استئصال التهمة، أو ظهور الحق، أو استقرارها، أو وضوحها.. أيًا كان، فهي كلمة جامعة، ولم تأتِ إلا في هذه السورة، فهي من المفردات القرآنية التي لم تأتِ إلا مرة واحدة.

وكان من الممكن أن تأتي "حص"، لكن "حصحص" التكرار يفيد الظهور، مثل "كُبوا" و"كُبكبوا"(فكبكبوا فيها) [الشعراء:94]؛ فهذا التكرار يفيد أن الفعل يتكرر.

{ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ}[يوسف:51]: أي ظهر.

{أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ}:

حاول بعض العلماء أن يقارن بين جملة {أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ}[يوسف:51] هنا، وبين ما قالته أمام النسوة {وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ}[يوسف:32]: فالاعتراف الأول كان فيه نوع من التجبر والتسلط والتكبر بالمعصية، وأنه سيفعل ما آمره به، أما الاعتراف هنا ففيه تواضع.

فقالوا أن خطاب امرأة العزيز مرّ بثلاث مراحل -التدرج في الخطاب-:

- خطاب فيه رفق ولين ومراودة وملاطفة.
- وخطاب فيه نوع من التجبر والقهر والتهديد.
- وخطاب فيه اعتراف وندم وتوبة.

فمرت امرأة العزيز بالثلاث مراحل

فمن اختار أن هذا خطاب توبة؛ يفتح الباب أمام من وقع في الفاحشة، وتسلط، وتجبر، فيقول له: باب التوبة لا زال مفتوحًا.

{قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}[يوسف:51]:

وهذا تأكيد أيضًا؛ فقد تحدثت عن نفسها، وتحدثت عنه في قمة الوضوح: "أنا وإنه"، وهذا أحد معاني الحصحصة، وهو انفصال الحق عن الباطل.

{أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ } أما هو استعملت معه التوكيد بقولها: "وإنه"، ولم تستعمله مع نفسها!

{وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}: لم تقل "وإنه صدق"، لم تكتف بالفعل فقط، بل قالت: {لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}! استخدمت الاسم.

{ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}[يوسف:52]:

هناك خلاف طويل بين أهل العلم حول قائل هذه العبارة:

إما أنها من كلام يوسف عليه السلام أو من كلام امرأة العزيز.

بداية: في الآية ٥١، أين كان مشهد {أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ}؟

الإجابة: عند الملك في القصر.

ثم جاءت آية: {ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}[يوسف:52]:

فاختلف العلماء؛ هل عاد المشهد إلى السجن عند يوسف؟ أم أنه حدث بعد خروج يوسف من السجن، وعودته إلى القصر؟ -باعتبار أن يوسف هو القائل-

أم أن هذه الآية هي استكمال لكلام امرأة العزيز؟

من اختار أنه من كلام يوسف عليه السلام قال: إما أنه قاله في السجن قبل خروجه، أو أنه قاله للملك بعدما خرج.

وعموم المتقدمين على هذا القول، حتى أن الطبري -رحمه الله- لم يذكر غيره أصلًا، وأتى بآثار كثيرة تدل على أن يوسف هو الذي قال ذلك.

-{ذلك لِيَعْلَمَ} من؟

=العزيز.

{ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ } أي، ليعلم أني لم أخنه في غيبته عني مع زوجته؛ لأن الله لا يهدي كيد الخائنين،

{وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ}[يوسف:53]:

وأنا أيضًا قد هممت بسوء، ولكن صرفني الله عنه.

{إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ} ولكنّ الله رحمني، {إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[يوسف:53] لما هممت به.

هذا تأويل سريع لمن اختار أن هذا قول يوسف عليه السلام، وهو اختيار الطبري وغالب المتقدمين كما ذكرنا، وهو الذي رُوي عن كثير من السلف.

أما غالب المتأخرين قد اختاروا العكس: أنه من قول امرأة العزيز.

وقد رجّح ابن تيمية -وكثير من المتأخرين- هذا القول، وأفرد مبحثًا كاملًا لدعمه، -واستشكل بعض المفسرين استفاضة ابن تيمية في ذلك، رغم أن أغلب المتقدمين قد اختاروا العكس-.

بل إنّ ابن كثير -وهو تابع لابن تيمية، وينقل عنه، ولكنه لا ينسب له الأقوال- قال أن الأشهر والأشبه بالسياق في الآية -فليس فيه تقطيع للسياق- أنه من كلام امرأة العزيز.

من اختار أنه من قول يوسف ذكر أسبابًا كثيرة، منها: الآثار المروية في الإسرائيليات.

ومنها: أنّ في قوله {وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ}[يوسف:53] هذه عبارة عظيمة لا تقولها امرأة العزيز؛ لأن فيها نوع من التواضع والإيمان، وامرأة العزيز لم تكتسب هذه المعاني بعد، فهذا أشبه بكلام مؤمن، أشبه بكلام نبي.

فردّ على هذا القول -من رجح أنه قول امرأة العزيز-: أنها اعترفت هنا بالتوبة؛ فموقف الندم والتوبة يناسبه السياق, ولا داعي لحصول تقطيع للسياق.

{ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ}[يوسف:52]:

على اعتبار أنه قول امرأة العزيز:

ذلك ليعلم من؟

-يوسف.

أي، ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه، أي لم أتكلم عنه في غيبته في السجن رغم قدرتي على ذلك؛ لأني رأيت –من تدبير الله– أن الله لا يهدي كيد الخائنين، فكما قُدّرت هذه الأمور سوف يقدر الله أمورًا أخرى وأُفضح.

لقد رأت امرأة العزيز ترتيبًا عجيبًا من الله سبحانه وتعالى: رؤيا يراها الملك، الإتيان بيوسف، وجمع النسوة؛ فأيقنت أنه ولي لله، فقالت: قضي الأمر! {ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ}[يوسف:51] أين سأذهب؟!

وأنا أعترف بذنبي {وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ}[يوسف:53]

–وهناك قول ثانٍ أن فاعل {ليعلم} هو زوجها، ولكن هذا قول بعيد وضعيف.

أي، ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب؛ فأنا "راودته" فقط، ولكني لم أقع في الفاحشة.

{ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ}[يوسف:52]:

على اعتبار أنه قول سيدنا يوسف عليه السلام:

أي، ذلك ليعلم عزيز مصر أني لم أخنه في زوجته أثناء غيبته؛ لأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

وما أبرئ نفسي حين هممت، ولكن الله سبحانه وتعالى نجاني إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

القول الأول –كما ذكرنا– هو اختيار كثير من المتقدمين، أما القول الأخير فهو اختيار ابن كثير وابن تيمية، وغيرهم من المتأخرين.

وردًا على من استشكل أن هذا قول شخص مؤمن؛ قالوا أنها أذعنت وتابت إلى الله سبحانه وتعالى.

نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

جزاكم الله خيرًا.